الفصل الثانى

جمال الدين الأفغانى فى عصره

١ ــ يقظة الشرق

لما توالت ضربات سياط المظالم على الشرق، وطال عليه وخز أسنة الطغيان ، استيقظ من غفلته ، وأخذ يلتفت إلى نفسه فيرى شقاء حاله ، وسوء مآله ، وما لبث أن أخذ قلبه يضطرب ويجيش، ونشأ عن ذلك أن دبت الروح الإسلامية فى كل بقعة من بقاع العالم الإسلامى ، فظهرت الدعوة الوهابية فى جزيرة العرب فى مطلع القرن التاسع عشر ، وقام السنوسى بدعوته الصوفية فى الجزائر وثارت فى وجه الطغيان، وشبت ثورة المهدى فى السودان ، ونمت دعوة الإصلاح فى الهند بزعامة السيد أحمد خان .

وانتشرت هذه اليقظة بزعامة رجالها وغايتها كلها مقاومة الغرب ، وصد سيطرته وقد اتخذ كل زعيم طريقاً لسعيه ومقاومته .

وهنا برز إلى الميدان السيد جمال الدين الأفغانى بدعوته الكبرى .

٢ ــ حياة جمال الدين الأفغانى

١ ــ مولده ونشأته

هو السيد جمال الدين بن السيد صفدر من بيت عظم فى بلاد الأفغان يرتقى نسبه إلى الحسين بن على رضى الله عنهما . وآل هذا البيت عشيرة كبيرة تقيم فى خطة « كنر » من أعمال كابل ــ ولهذه العشيرة منزلة علية من قلوب الأفغانيين يجلونها رعاية لحرمة نسبها الشريف ، وكانت لها سيادة على جزء من الأراضى

الأفغانية تستقل بالحكم فيه[١] .

ولد فى قرية أسد أباد سنة ١٢٥٤ هـ (١٨٣٨ م) وفى الثامنة من عمره ، جلس للتعلم وعُنى والده بتربيته فأيد العناية به قوة فى فطرته ، وبإشراق فى قريحته ، وذكاء فى مدركته فأخذ فى بدايات العلوم ولم يقف دون نهاياتها[٢] » .

تلقى معارف جمة بين علوم عربية ، وعاوم شرعية ، وعلوم عقلية ، وفنون رياضية ودرس نظريات الطب والتشريح ، واستكمل الغاية من دروسه ، فى الثامنة عشرة من عمره ثم سافر إلى الهند فأقام بها سنة وبضعة أشهر ينظر فى العلوم الرياضية على الطريقة الأوربية الجديدة ، وأتى بعد ذلك إلى الأقطار الحجازية لأداء فريضة الحج وطالت مدة سفره بها نحو سنة وهو يتنقل من بلد إلى بلد ومن قطر إلى قطر حتى وافى مكة سنة ١٢٧٣ هـ (١٨٥٧) م فوقف على كثير من عادات الأمم التى مر بها فى سياحته واكتنه أخلاقهم ، وأصاب من ذلك فوائد غزيرة ثم رجع بعد ذلك إلى بلاده ودخل فى سلك رجال الحكومة على عهد الأمير دوست محمد خان ، ولما زحف هذا الأمير إلى هراة ليفتتحها كان جمال الدين معه فى جيشه .

ولما مات هذا الأمير انضم السيد إلى محمد أعظم خان وكان زعيم جيشه فى حربه مع أخيه شير على ولما انتهت الحرب بانتصار شير على — وكان ذلك بتأييد الإنجليز وبذلهم القناطير من الذهب ليفرقها فى الرؤساء — ذهب (محمد أعظم خان) إلى إيران هارباً . أما السيد فظل فى كابل لم يمسسه سوء احتراما لعشيرته

---

(١) قال العلامة صلاح الدين السلجوقى سفير أفغانستان فى الجمهورية العربية المتحدة : «كان أجداد السيد من ملوك الطوائف ، وكان لهم نفوذ كبير فى سائر أرجاء الوطن الأفغانى . ولا يزال أفراد هذه العائلة يطلق عليهم لقب (باشا) وهو لقب خاص بهم دون غيرهم . وأصل كلمة (باشا) آرية معناها (الملك) فهؤلاء السادات كانوا ملوكاً من جهتين الأولى : لأنهم من ملوك الطوائف والثانية لأن أحفاد النبى عليه الصلاة والسلام هم ملوك فى نظر الأفغانيين من حيث الرتبة والشرف» ص ٢٤ من بحث العلامة السلجوقى وضعه للدفاع عن السيد جمال الدين .

(٢) ارجع إلى تاريخ السيد الذى كتبه الأستاذ الإمام محمد عبده فى أول رسالة « الرد على الدهريين » .

وخوف انتفاض العامة على الأمير حمية لآل البيت .

وبعد ذلك رأى السيد أن يغادر البلاد ليؤدى فريضة الحج فأمر بأن يرتحل عن طريق الهند ولما وصل إلى تخومها تلقته حكومتها بحفاوة بالغة ولكنها لم تسمح له بطول الإقامة ولا باجتماع الناس إليه إلا على عين من رجالها فلم يقم هناك أكثر من شهر .

ب — مجيئه إلى مصر أول مرة

ثم سيرته حكومة الهند على نفقتها إلى السويس فجاء إلى مصر وأقام بها أربعين يوماً تردد فيها على الأزهر وخالطه كثير من طلبة العلم السوريين فقرأ لهم شيئاً من كتاب شرح الأظهار .

ح — سفره إلى الأستانة أول مرة

ثم سافر إلى الأستانة سنة ١٢٨٧ هـ (١٨٧٠) وكانت شهرته قد سبقته إلى هناك فعلا ذكره بين الأمراء والوزراء ورجال العلم والأدب .

ولم يلبث قليلاً حتى سمى عضواً فى مجلس المعارف فأدى حق الاستقامة والنصح فى آرائه وأشار إلى طرق لإصلاح التعليم فأحفظت عليه قلب شيخ الإسلام ! لأنها تمس شيئاً من رزقه ونفوذه ؛ فأرصد له العنت وانتهز فرصة إلقاء خطاب من السيد فى « الحث على الصناعات » شبه فيه المعيشة الإنسانية ببدن حى ، وأن كل صناعة بمنزلة عضو فى ذلك البدن ، ثم قال : « ولا حياة لجسم إلا بروح وروح هذا الجسم إما النبوة وإما الحكمة » فهاج شيخ الإسلام وزعم أن السيد يزعم أن النبوة « صنعة » وشنع عليه — وانتهى الأمر بأن أشير على السيد بالجلاء عن الآستانة ريثما تسكن الخواطر ! !

د — عودته إلى مصر

فجاء إلى مصر فى أول سنة ١٢٨٦ هـ (١٨٧١ م) وكان فى زمن إسماعيل .

وبعد أن قضى فى مصر ثمانى سنوات صدر أمر الخديو — الذى كان من

نصراء السيد فى سنة ١٢٩٦ هـ (١٨٧٩ م) — بنفيه وذلك بأن تعاليمه السياسية أغضبت توفيق (باشا) لأنه كان يدعو إلى الشورى فظن أن ذلك يؤدى إلى (الحكم الجمهورى)، وهيجت تعاليمه الفلسفية شيوخ الأزهر الجامدين فرموه بالفسوق وكانت تعاليم السيد قد أوغرت عليه كذلك صدر مستر فيفيان قنصل إنجلترا الجنرال فجاءه الكيد من ههنا وههنا وههنا .

كان نفيه إلى الهند فأقام فى حيدر آباد عامًا كتب فى أثنائه مذكرات كثيرة وألف رسالة « الرد على الدهريين » .

ولما شبت الثورة العرابية نقلته حكومة الهند إلى كلكتا وألزمته بأن يقيم بها حتى تنتهى هذه الثورة ، إذ كانت الحكومة الإنجليزية تظن أن له يداً فيها ، ثم أبيح له أن يذهب إلى حيث يشاء فسافر إلى لندن ثم انتقل منها إلى باريس ، ومن هناك استدعى إليه الأستاذ الإمام محمد عبده وكان منفيًا فى سوريا فأقاما معًا باريس ثلاث سنين أصدرا فى أثنائها جريدة «العروة الوثقى» ولقى وهو فى باريس الفيلسوف رينان ونشر أفكاره السياسية التى كان يحارب فيها تدخل الدول الغربية فى شؤون الأمم الإسلامية — خصوصاً الهند ومصر — وكان ذلك فى مقالات تداولتها الجرائد الكبرى وامتدت إليها أعناق الدوائر السياسية المشتغلة بشئون الشرق .

وبقى يتنقل فى أوربا بين باريس ولندن يتصل بالعلماء والكتاب ورجال السياسة وجمع مستر بلانت بينه وبين اللورد سالسبرى واللورد تشرشل للمفاوضة فى أمر ثورة المهدى بالسودان .

وبعد ذلك سافر إلى البلاد الإيرانية ثم غادرها إلى روسية بعد أن تنكر له الشاه ونشر فى الجرائد الروسية « فصولاً » تردد فى عالم السياسة صداها » .

ومن روسية سافر إلى باريس يزور معرضها الكبير سنة ١٨٨٩ ، وهناك التقى بشاه إيران فرجاه الشاه أن يعود إلى فارس فأجابه ، ولكن لما رأى الشعب قد التف حوله وأخذ يصغى إلى تعاليمه خشى على سلطانه فتغير قلبه عليه وانتهى الأمر

إلى أن أرسل خمسمئة من فرسانه المدججين بالسلاح فاقتحموا عليه وهو مريض فى «شاه عبد العظيم»[١]، وقاده خمسون منهم إلى ما وراء الحدود .

وفى سنة ١٨٩٠ ، كانت حكومة فارس قد أعطت حق احتكار التمباك شركة إنجليزية فاغتنم السيد هذه الفرصة ، وكتب خطاباً حاراً لميرزا حسن الشيرازى رئيس المجتهدين بفارس يندد بهذا العمل الذى يضر بثروة البلاد ويمكن أعداءها ؛ فأصدر رئيس المجتهدين فتوى بتحريم تدخين التمباك ما لم تعدل الحكومة عن مشروعها فاضطرت الحكومة إلى العدول عنه ودفعت للشركة نصف مليون جنيه تعويضاً .

وفى سنة ١٨٩٢ ذهب السيد إلى لندن مرة أخرى ، وكان من المؤسسين للمجلة الشهرية « أخبار الخافقين » ، التى كانت تصدر بالعربية والإنجليزية .

وفى أثناء وجوده بلندن استدعاه السلطان عبد الحميد إلى الأستانة ثم سجنه سجناً سياسياً خمس سنين ثم دبرت له مؤامرة قتل فيها مسموماً فى ٩ مارس سنة ١٨٩٧ .

٣ ـ صورته الجسمانية والنفسية

وصف خَلْقَهُ وصورته تلميذه النجيب الأديب الكبير أديب إسحاق فقال :

« والعهد بهذا الحكيم أنه أسمر اللون ، ربعة ممتلئ ، قوى البنية جذاب النظر نافذ اللحظ خفيف العارضين مسترسل الشعر بجبة وسراويلات سوداء تنطبق على الكاحلين وعمامة صغيرة بيضاء على زى علماء الأستانة . وأنه عزب عفيف النفس قانت كثير القيام لا ينام إلا الغلس إلى الضحى ولا يأكل غير مرة واحدة فى اليوم على أنه يكثر من شرب الشاى والتدخين » .

ومما وصفه به سليم نحورى :

« أنه كان نحيف البنية أهيف القامة جذّاب الملامح حاد البصر يكاد يتطاير الشرر من حدقته ، طلى الكلام ذرب اللسان فصيح اللهجة بليغ العبارة

(١) شاه عبد العظيم : مكان على بعد عشرين كيلومتراً من طهران به مقام مقدس .

مليح النكتة سمح الكف طلق المحيا وقور السمت يجتنب النساء ويفطم نفسه عن الشهوات . . » .

« أما صفاته وأخلاقه فقد وصفها غير واحد مما عرفه فقال فيه تلميذه أديب إسحاق :

« كان قوىّ العارضة ميال إلى المعارضة طويل الحجة واسع المحفوظ نبيه يكاد يكشف حجب الضمائر ويهتك أسرار السرائر . . . » .

وقال فيه مستر بلانت :

« . . . وقد كان حاد الذكاء قوى الحافظة حتى قيل إنه يستطيع أن يقرأ كتاباً برمته فى أى موضوع ثم لا يشرد من ذهنه كلمة منه بعد ذلك . . . » .

وقال جورج كوتشى فى رسالة « الشيخ جمال الدين الأفغانى ودخائل صاحب الجلالة الإمبراطورية عبد الحميد الثانى » : « إن الشيخ جمال الدين قد استرعى الأنظار منذ حداثة السن بذكائه النادر وميله الواضح إلى كل ما له صلة بالفنون الحربية . . . » .

ووصف الأستاذ الإمام محمد عبده أخلاقه فقال :

« أما أخلاقه فسلامة القلب سائدة على صفاته ، وله حلم عظيم يسع ما يشاء الله أن يسع إلى أن يدنو منه أحد ليمس شرفه أو دينه فينقلب الحلم إلى غضب تنقض منه الشهب ، فبينما هو حليم أواب ، إذ هو أسد وثاب ، وهو كريم يبذل ما بيده قوى الاعتماد على الله لا يبالى ما تأتى به صروف الدهر ، عظيم الأمانة ، سهل لمن لاينه ، صعب لمن خاشنه ، طموح إلى مقصده السياسى ، إذا لاحت له بارقة منه تعجل السير للوصول إليه وكثيراً ما كان التعجل علة الحرمان .

وهو قليل الحرص على الدنيا ، بعيد من الغرور بزخارفها ، ولوع بعظائم الأمور ، عزوف عن صغارها ، شجاع مقدام لا يهاب الموت ، كأنه لا يعرفه ، إلا أنه حديد المزاج وكثيراً ما هدمت الحدة ما رفعته الفطنة ، إلا أنه صار اليوم فى رسوخ الأطواد وثبات الإفناد[1] فخور بنسبه إلى سيد المرسلين (ص) لا يعد

---

(١) الفند هو الشمراخ من الجبل .

لنفسه مرتبة أرفع ، ولا عزًّا أمنع من كونه سلالة ذلك البيت الطاهر ، وبالجملة ففضله كعلمه ، والكمال لله وحده » .

ووقف مؤرخ العصر الحديث عبد الرحمن الرافعى عند صفة علو نفس السيد الأفغانى فقال :

« ويلوح لنا أن أبرز صفة فى جمال الدين علو النفس ، ولعلها الصفة الجامعة التى تصدر عنها صفاته الأخرى وأخلاقه ، وقد احتفظ بها فى أشد الأوقات حرجًا ، ولازمته عند اشتداد المحن ، وتعاظم الخطوب ، مما دل على أنها غريزة طبعت عليها نفسه العالية ، وحسبك دليلا على ذلك ما كان من موقفه حين نفى من مصر فى أوائل عهد الخديو توفيق (باشا) .

فقد أنزل إلى البحر فى السويس خلال الجيب ، فجاءه قنصل إيران فى ذلك الثغر ومعه نفر من تجار العجم ، وقدموا له مقداراً من المال على سبيل الهدية أو القرض الحسن فأبى أن يأخذ منه شيئا ، وقال لهم : "احفظوا المال فأنتم إليه أحوج" إن الليث لا يعدم فريسة حينما ذهب » .

وهذا الذى أشار إليه الرافعى من عمل قنصل إيران قد وقع مثله من أحد أعضاء جمعية الماسون التى أنشأها السيد فى مصر ؛ فقد سمع هذا العضو — وكان بالزقازيق — بأمر نفيه فذهب إلى محطتها ليراه ، ولأنه يعلم فقره فقد أخرج كيس نقوده ودسه فى جيب السيد ، فغضب السيد غضباً شديداً وأخرجه من جيبه محتدًّا وقال له : « خذ كيسك وإلا ألقيت به تحت القطار ، أنا أخرج من مصر وليس فى جيبى إلا ريال واحد ! والأسد لا يعدم فريسة حينما ذهب » .

ووصف لوثروب السيد جمال الدين فى كتابه حاضر العالم الإسلامى فقال :

« كان جمال الدين سيد النابغين الحكماء ، وأمير الخطباء البلغاء ، وداهية من أعظم الدهاة ، دامغ الحجة ، قاطع البرهان ، ثبت الجنان ، متوقد العزم ، شديد المهابة ، كأن فى ناسوته أسرار المغنطيسية ؛ فلهذا كان المنهاج الذى نهجه عظيماً ، وكانت سيرته كبيرة ؛ فبلغ من علو المنزلة فى المسلمين ما قل أن يبلغ مثله سواه . وكان سائحاً جواباً طاف العالم الإسلامى قطرًا قطرًا ، وجال غربى

أوربة بلداً بلداً ، فاكتسب من هذه السياحات الكبرى ، ومن الاطلاع العميق والتبحر الواسع فى سير العالم والأمم علماً راسخاً ، واكتنه أسراراً خفية ، واستبطن غوامض كثيرة فأعانه ذلك عوناً كبيراً على القيام بجلائل الأعمال التى قام بها وكان بعامل سجيته وطبعه وخلقه زعيماً مسلماً كبيراً ؛ فكأنه على وفور استعداده ومواهبه ، إنما خلقه الله فى المسلمين لنشر الدعوة فحسب ، فانقادت له نفوسهم ، وطافت متعاقدة من حوله قلوبهم ، فليس هناك فى قطر من الأقطار الإسلامية ، وطأت أرضَه قدما جمال الدين إلا وكانت فيه ثورة فكرية اجتماعية لا تخبو نارها ، ولا يتبدد أوارها .

ولقد كان أول مسلم أيقن بخطر السيطرة الغربية المنتشرة فى الشرق الإسلامى ، وتمثل عواقبها فيما إذا طال عهدها ، وامتدت حياتها ورسخت فى تربة الشرق ، وأدرك شؤم المستقبل . وما سينزل بساحة الإسلام والمسلمين من النائبة الكبرى إذا لبث الشرق الإسلامى على حال مثل حاله التى كان عليها ؛ فهب جمال يضحى نفسه ، ويفنى حياته فى سبيل إيقاظ العالم الإسلامى وإنذاره بسوء العقبى ويدعوه إلى إعداد ذرائع الدفاع لساعة يصيح فيها النفير ؛ فلما اشتهر شأن جمال خشيت الحكومات الاستعمارية أمره وحسبت له ألف حساب فنفته بحجة أنه هائج المسلمين ، ولم تخف دولة جمالا وتضطهده مثل ما خافته واضطهدته الدولة البريطانية فسجنته فى الهند مرة ثم أطلقت سراحه ، وكانت له يد فى الثورة العرابية التى أوقدت نارها فى وجه الغربيين وبعد أن تكلم لوثروب عن دعوته قال :

« هذه دعوة جمال الدين التى أفنى حياته فى سبيل نشرها بالبلاغة الساحرة ، والحجج الدامغة ، فكانت كالغيث الجود أصاب التربة الجدباء ، ولا عجب أن يكون جمال الدين ذلك الرجل الموقظ الكبير ، وتكون كل نسمة نفخها فى المسلمين عاصفة زعزعاً » .

وأبان مستر بلانت عن نبوغه فقال :

« أما نبوغ جمال الدين فى اجتهاده فى حمل الممالك التى وعظ فيها على

أن تعيد النظر فى الموقف الإسلامى كله، وأن تستبدل بالتمسك بالقديم، التحرك إلى الأمام حركات أدبية منسجمة مع العلم العصرى . وقد مكنه علمه التام — بالقرآن والسنة — من إقامة الحجة على أنهما لو أحسن تأويلهما معًا، لكان الإسلام كفؤًا لأحداث تطور راق عظيم . . .

إن المسلم يوفق بين نفسه وبين أرقى ما تصبو إلى النفس الإنسانية ، وما تحتاج إليه الحياة العصرية .

obeikandl.com